الدكاكين الصغيرة

د. إيهاب سلام

الناشر : مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا بالقاهرة
ت : ٣٩٠٠٨٦٨ - ٣٩١٩٣٧٧

١

سمسم هو الاسم التجارى •• أما « سامى جاد الله » فلا يذكره الا حينما يمرق من باب اصلاحية الأحداث بالمرج •• مشـــوار طويل يقطعـــه بين الجيزة والمرج ، ولكنه لا يقطعـــه بالمزاحمة فى السيارات العمومية ، انما يقـــود دراجته البخارية الحبيبة اليه فى طرق العاصمة الوعـــرة • وقد أصـــبح يعرف « ألطاف » ، تلك الدراجة ، ويدرك خباياها ، مثلما يدرك خبايا هـــذا الدكان الصغير الذى لا حجم له • مجرد باب ، لا يمكن للانسان أن يتعمق فيه أكثر من نصف متر ، ولكنه مزدحم بآلات صـــنع الأحذية واصلاحها ، وذواقها أو دهانها ، وقطع الرتق الجلـــدية •

يأتى الى دكانه الصغير عند المغرب بعد أن يكون قد أناخ رأســـه فترة العصارى ، وينهض ليلبى نداء الحاجة وهو يطلب الشـــاى الغامق من المقهى • يعبر شارع الصناديلى من خلال حفرياته غير الأثرية قادما من الزقلق الذى يأويه • ويترك الجمل بما حمل : الأولاد أو البنات والولد الوحيد يتســـامرون عما فعلوه فى يومهم ، أو قد يكون بعضهم متخلفا عن جلسة المغرب، فيفوته توادهم • لم يقتل الضنك فيهم حب بعضهم لبعض ، والأم تقوم على خدمتهم • ناقة لا تكل • وهو ينزوى خارج دكانه

حتى منتصف الليل أو قبله بقليل ، يصـــلح ويرتق ويخيط فى الأحذية المتناثرة ثم يعود الى الدار محنى الظهر وينـــام ليعاود الكـــرة •

دكانه مصـــدر السلوى حيث يتجمع الأصدقاء وأصـــحاب المصالح • يجلس عنده على مقعـــده الصغير ، وبجانبه يجلس الخـــلان على كراسى استلفها من المقهى القريب • ينتظرون أن يفـــرغ من اصـــــلاح أحـــــذيتهم ••• هـــم يعرفـــــون أن سمسم لا يصلح حـــذاء الا اذا كان الشخص واقفا على يديه ، واذا تركه فان سمسم يفر من الحـــذاء الى آخر ! •

يقول لهم كل مرة :

ــ سوف يطبق قانون الاصلاح الوظيفى ، وسوف أترقى وتتجمع لى مئـــات الجنيهات ، وأشـــترى بها دكانا كبيرا يبيع الأحذية لكم ياغجر •

يقول عواد الأسمر فى يأس :

يا بنى •• لا تثق فى ذلك ، حينما يرشـــون عليكم الجنيهات ســـوف ترتفع الأسعار ، وتبلع كل المدخرات • الحكومة تضحك علينا ، تطبع البنكنوت وتوزعه على النـــاس ، ولا يجد التجار أمامهم طريقا الا رفع أسعار السلع ••• وهكذا تلتهب السوق • ويستمر التهابها عاما بعد عام ، حتى أصبح الوضع لا نتيجة له غير ألم مزمن •

يرد عليه أبو المعاطى فى تفاؤل :

أتتم لا يعجبكم العجب ولا الصيام فى رجب . اذا لم تحسن الحكومة أحوال الموظفين تلقون عليها باللائمة . واذا قامت باجراء التحسينات تقولون ان هذا تحسين كاذب .

ينهى سمسم المناقشة قائلا :

تحسين كاذب .. تحسين صادق .. أن تقبض الأوراق الخضراء فى أيدينا ..

ثم يتساءل ضاحكا :

لكن من هو تحسين صادق ذلك ؟ .. أهو يعمل لدينا فى الاصلاحية ؟

يضحكون .. يمتاز بالدعابة وقلبه يتلوى .. يكتم الألم فى نفسه لفترة ، ولكنه يفضفضه بعد قليل . الفقر والفقر والفقر ، لا شيء غيره يطارده فى كل خطوات حياته . تزوج معدما ، وأنجب أولادا وهو يعانى من الفلس ، وسار بهم فى طريق حياته خالى الوفاض ، ضيق ذات اليد . هو الذى أدخل وداد ابنته الأولى الى معهد التمريض . ولو أنه لم يستطع أن يتطاول على ثريا فدخلت معهد الخدمة الاجتماعية . ولكنه تمكن من محمود ــ آخر العنقود ــ فحال بينه وبين دخول الجامعة .

واشتــغل بالثانوية العــامة فى وزارة الصحة .. كاتبا للصادر والوارد ولو أنه يحسن من مستواه الآن ويتعلم الآلة الكاتبــة باللغــات العربية والانجليزية والفرنسية . طموح ذلك الفتى : يريد أن يتفوق على أبيه ! .

يشــاهد وداد عائدة من المستشفى والســاعة تقترب من التاسعة مســاء . تمر وداد بثلاث ورديات خلال ثلاث أسابيع . الوردية الأولى يبــدأ فيها عملها من الثامنة حتى الثانية بعــد الظهر . والثانيــة حينما تبــدأ القيلولة وتنتهى العشــاء . أما الوردية الثالثة فتبدأ بعد ذلك حتى الصباح . وها هى ذى تمر دون أن تلقى السلام ! أهو جفاء ؟ أم أن الألفة ماتت فى صدرها؟

أنت تعرف السبب يا سمسم : تريدك أن تعتزل المهنة .. تريد أن تقفل هذا الحق وتواجه الفراغ . ألا تعرف أن هذا الدكان أصبح جزءا منى وأصبحت جزءا منه ؟ وأنه لو قفل فســوف أنغلق أيضا على نفسى ، وبعدها قد أموت ؟ . بعد الشر عنك يا سمسم .

ـ يا وداد .. يا وداد ..

يصيح فيها ، وكانت تغذ الســير ، فتتوقف وتقول :

ـ نعم يا أبى ! ..

ـ ألا تقولين السلام عليكم ؟ .

ـ السلام عليكم يا أبى •

ـ وعليكم السلام يا وداد •• ألا تريدين شيئا ؟

ـ لا •• يا أبى •• لا أريد •• تصبح على خير •

لا تريد أن يراهـا الناس معك •• سـيعرفون أنها ابنة سمسم مرتق الأحذية • سـوف يؤثر ذلك فى عدلها •• سوف يؤخر الخطاب عنها • ألا تعتزل يا سمسم ؟ •

يحاول أن يتناسى • فيلقى السـلام على جاره المواجـه أمامه • برعى القيصر • وهو يقفل دكانه الصغير ، يحاول أن يمضى الى بيته • حينما يبدأ الليل يلطخ الجـو بلونه ، يفـر قيصر منـه لائذا بنور حجرته ، ولو أن الضـوء بها خافت حـزين •

٢

« برعى القيصر » قزم ناتىء الصدر مدبب الظهر • قصير القامة ولو أنه يمشى متعاظما كأنما يستمد عظمته من اسمه •• غير أن رأسه ليست مثل الأقزام كبيرة على جسـد قصير ، انما رأسـه عادية كبقية خلق الله • لذلك بدا أن ما يعتوره هو تشـوه خلقى • اكترى الدكان الصغير أسفل بيت المرجوشى •• فى الشارع الطويل شارع ابن الرشيد الذى لا يقسم شـارع

الصناديلى ، انما تواجهه سينما الفنتازيو الشتوية وهى التى تنهى امتداده • فتح المحل منذ أن شيد البيت ، وأعطاه اياه المرجوشى رأفة به ، وقال له : يا برعى ان أسهل تجارة لك هى تأجير العجلات • وبدأ يؤجر فى عدد من الدراجات اشتراها بثمن بخس • وكان محط أنظار أولاد الشارع والشوارع المجاورة • وقد كانت تجارته تروج فى أيام الأعياد والمواسم • ثم بدأ نفر من بائعى اللبن ومستعملى الدراجات بصفة منتظمة التردد عليه حتى يقوم باصلاح دراجاتهم •• ولم يكن لديه أمل أن يتزوج أبدا ، نظرا لجرمه القمىء ،ولو أن وجهه لم يكن فى تلك الأيام قبيحا ، فقد كان شعره مسترسلا ناعما ، وضحكته تضفى على وجهه صفاء • غير أن المعارك التى كان يخوضها كالمعلمين الكبار جعلت فى وجهه كثيرا من الندبات ، أهمها تلك السكين التى نالها فى جانب من وجهه • وكان فى ذلك الوقت يتدخل كرجل فى سبيل الدفاع عن قشطة ضد زوجها حسب الله • وكان كثيرا ما يتعارك معها حتى تعطيه ما جنته من نقود من غسيل الملابس ، ليشرب به ذلك السم الهارى الذى يجعله يسير مترنحا • ولعل برعى ظن أن حسب الله ليس فى وعيه حينما نهض ودق عنقه بقدوم كبير • فما كان من حسب الله الا أن استل من جيبه قرن الغزال ، وشج وجه برعى القيصر وطعن رأسه ، مما استلزم عملية أجراها فى مستشفى أم المصريين ••

وفى القسم تمكن برعى من أن يكون المجنى عليه ، ودخل زوج قشـطة السجن .. ليس فقط لادانته فى الجريمـة التى ارتكبها فى حق برعى ، انما بسبب ما تراكم عليه من أحكام كان هاربا منها . وكان يحـاول أن يفلت هـذه المرة من الشرطة ، لولا أن برعى عرف مكانه ودل الشرطة عليه . وكان قد خرج من مستشفى أم المصريين بعاهتين : واحدة فى رأسـه والأخرى جرح غائر فى وجهه .

وكبر برعى فى عين قشطة ، ولم تجد بدا من أن تزف اليه بعد أن أنجبت ابنتها تفاحـة . وكانت ــ فيما بعد ــ تقول : جئت أتظلل بظل رجل فتظللت بظل كلب لا أمانة عنده . اذ عندما ضاق الحال بتجارة برعى ، وأصـبح ركوب الدراجات طرازا قديما ، بدأ يخسر ، ويمد يده الى نقودهـا ، ويتضاربان حتى تستسلم فى النهاية ، رغم أنها بدينة وتستطيع أن تهرسه تحتها . ولمـا ضاقت الحال ببرعى ، باع تفاحة للبنانى مشبوه الطوية ، على أن يتزوجها ويدفع مبلغا محترما مقابل ذلك . وحينما حمل اللبنانى بضاعته ، وسافر على أول مركب من الاسكندرية ، كان برعى يسكر فى محل مخالى فى زاوية مختفية عن أعين الناس . وبدد الأموال المحترمة دون أن يدفع الايجـار المتأخر للدكان المظلوم معه .. وها هى سنوات تمضى دون أن يسـمع برعى شـيئا عن تفاحة ، وقلب قشـطة يأكلها كل يوم على ابنتها ،

لا تعرف لها عنوانا ولا مقرا • وأطلق الفقر طرف لســانه ليلتقط قشطة فى جوفه ، حينما فضل الناس الغسالات الكهربائية على غسيل يدى قشطة القويتين • وهكذا طفق الفقر يحرك أمواجا فى مستنقع برعى القيصر ، ويرفعه تارة ويخفضه أخرى • وصار يعتمد على عدد من الزبائن يكفى ما يدفعونه دخلا بسيطا يقيم به أوده ، وبخلت عليه قشطة بأى مليم حينما امتهنت الخدمة فى البيوت ، ولكنه صبر ولا يزال يصبر •

انه يعـانى الآن من آلام ادخـار ايجار الدكان • وهــو يعرف أن ابن المرجوشى الكبير لن يطالبه بشىء • غير أن عزة نفســه تمنعه أن ينام وفى ذمته دين ، ولو أنه يبلع صبر هــذه العزة كل يوم ، وينام هانىء البال لا يعكر صفوه الا اشتياقه الى ســيجارة أو كأس • والأمر يحتاج الى اصــلاح عدد من الدراجات ، ولكن الزبائن شــح عددهم حتى أصابه القرف ، لكنه يتحمل •

ويرد السلام على سمسم • ويسأله سمسم :

ــ لمــاذا قفلت اليوم متأخرا يا أسطى برعى ؟

يقول برعى بعصبية :

ــ أنا فى عرض زبون •• ولكن لا أحد يأتى •

وفجأة يقف أمامه شخص لاهثا يجر دراجة فى يده :

ــ لحام سريع لهذه الدراجة يا أسطى برعى ••

ينظر اليه من تحت الى فوق ، كأنما السهل ينظر الى قمة الجبل ، وكأنما لا يحس بهذه الثياب التى يرتديها وتبدو مرتقة مليئة بالشحم تنطق بالألم •• ويصفق بيده ويقول :

ــ شـــطبنا يا بنى •

ويستخرج علبة السجائر من جيبه ، ويمد أصبعين ليأخذ منها ســيجاره ، وهى تكاد تصــاب بالهزال لأنها تحوى ثلاث سيجارات ، وهو يقول بغضب :

ــ فتحت الدكان حتى الساعة الثامنة والنصف •• وتأتى أنت الساعة التاسعة الا ربع •• هل هذا معقول ؟

لا تركب مخك الزنخ يا برعى ، أصلح للرجل دراجته ، أنت فى حاجة الى قرش صــاغ •• ان لم يكن لايجار المحل ، فليكن لســجائرك •

٣

يفتح فكرى المزين دكانه بتؤدة ساعة العصارى ، ويهش الذباب ببطء • ويجلس على كرسى يتأمل المــارة • انه يعرف أن أحدا لن يأتى ، ولا حتى ليحلق ذقنه أو يشذب شاربه • لقد انفض الناس من حوله يوم أن ارتعشت يداه ، لكنه يفتح المحل ليوهم نفســه أنه لا يزال يعمل • وأمامه تبيع حنيفــة

بطيخها ، وزوجها السبع المنوفى يدخن النار جيلة •• أحضرها له صبى المقهى القريب • ولم يكن سمسم قد فتح عرينه الصغير وهو الجار الجنب له ، كثيرا ما يتجاذبان أطراف الحديث •، لكن حينما ثقل لســان فكرى أصبح الحديث من جانب سمسم فقط •• لقــد طغى الشلل على بعض أجزاء جســده وتملكها وأصبح يرتع فى جوانبها •

فيسأله السبع المنوفى قائلا :

ـــ ألا تنوى أن تبيع لى هــذا الدكان ما دمت لا تعمل يا أســطى فكرى ؟

يقول فكرى بلسان ثقيل :

ـــ حينما أموت اشتريها من الورثة بالجدك •

يقول السبع المنوفى :

ـــ بعد الشر عنك يا عم فكرى •• أنا أريد أن أجذل الك العطاء •• أريد أن أضــع البطيخ فى مكان أمين •• بدلا من الشــارع • أنت ترى أننى اما نائم بجواره حتى الصباح •• واما حنيفة نائمة بجانبه ومعها الأولاد •

والأولاد سبعة يمرحون فى الطريق •• ينظر اليهم السبع المنوفى بحسره ويتأمل فكرى عسى أن يجيب •

يقول فكرى :

قلت لك بعد أن أموت •

يلقى بمبسم النارجيلة ويقول :

ــ يا سيدى •• الأعمار بيد الله •• وأنا أريد أن أحافظ على مالى ليس الا •

يبتسم فكرى باستهزاء •• لا يدرى المـأفون أن هـذا الدكان قطعة منى لن أتركها الا على جثتى •• أنا ممثل مسرحى لا يرضى الا الموت على خشبة المسرح •

٤

ويأتى سمسم ليفتح دكانه حاملا فى يده كوب شاى أسود اللون •• ويلقى السـلام على فكرى المزين والسبع المنوفى ، بينما حنيفة تشـق بطيخة حمراء لأحد الزبائن ، وتصرخ مهللة أحمر من ذلك ما فى ! •

ويضع سمسم الكوب على الأرض • ويفتح قفل الدكان بهدوء ، ويبدأ فى ترتيب عدته وجلسـته خارج الدكان •• اذ ليس هناك متسع داخله • ويلتقط حذاءا كان عميل قد أوصى به خيرا •• ويبدأ فى رتقه •

ثورة فى البيت ، تركها وخرج • لكنها ثورة صامته •• لقد احتمت وداد بمستشفاها ، وأصبحت تلتصق بوردية واحدة

هى وردية العصر • فلا يراهــا فى الصباح لأنها نائمة ، ولا يراها فى الليل لأنه يكون فى الدكان • وأختها ثريا وافقت على الاقامة فى مبنى الوحدة الاجتماعية بالواســطى •• لا تفكر حتى فى المجىء أيام الخميس والجمعة • وحينما سأل عن هــذا الوضع المؤلم أجابت أم محمود أن البنتين تريدان أن تتشرفا بمكانة أبيهما • وليس من المكانة أن يكون راتق أحذية • أليس هذا العمل هو الذى ساعدهما على أن تكون واحدة منهما ممرضة درجة أولى فى مستشفى خاص ، والثانية أخصائية اجتماعية ؟ ! والثالث يريد أن يسافر الى ليبيا ليغترف من الخيرات هناك • أبعد ذلك يصبح هذا العمل محط احتقار منهم ؟ •

يترك سمسم كوب الشاى ومقعده ، ليفض خناقة نشبت بين صبى الجــزار عنتر وبين معلمه زينهم أبو المجد •• بوغت بالشجار يقدح زناده بغير مقدمات • وقد أخــذ صاحب العمل الممصوص الوجــه بتلابيب الثانى العصــفورى الطبع ، وطفق يضربه ، ويرفســه كالفرس الجامح • وحينما يحاول أن يفلت منه ، يمسك قدمه اليسرى ، ويرفعه منه كما يرفع العجل بالهلب الى عامود الذبيحة ، ويصرخ الفتى الصغير وزينهم يلف قدمه ، وهو يقاومه عكس الاتجاه ، ويترنح ويسقط الى الأرض باكيا يبلل البلاط بدموعه ، ويشــد سمسم المعلم ويمنعه من مواصلة الشــجار :

ـ الولد كالعصفور فى يدك يا معلم •

كأنما نار اضطرمت فازداد لهيبها • يستمر صراخ عنتر ، ويتحول الصراخ الى عويل •• وحينما يحاول أن يساعده سمسم على النهوض يجده بلا حراك •• لقد كسر المعلم قدم صبيه ومزقها فى هذا الالتواء •• يقفل سمسم دكانه ليحمل الفتى الى المستشفى ، والمعلم الضخم الطويل القامة الممصوص الوجه يشد مقعدا ، ويحاول أن يهدأ ، ويسوى شاربه كأن شيئا لم يحدث ، أو كأنه لم يرتكب جرما •

٥

فى الصباح لم يفتح عنتر الدكان ، لأنه حجز فى المستشفى ، ولم يفتحها زينهم لأن نومه الثقيل يحول دون ذلك •• انما يأتى برعى القيصر ليعالج قفل دكانه الصدىء ، ويبدأ فى وضع الدراجات القليلة التى تبقت لديه فى علائقها ، ويفرش الحصيرة الجلدية أمام باب الدكان ليستعد لاستقبال الزبائن •

فى الماضى كان لديه فلفل الأعور ، كان صبيا نشطا ، لكنه آثر أن يكون ميكانيكيا ، فهرب من خدمته •• كان يتفنن فى ايذائه ، كأنما الغيرة تنهش جسده بسبب طول قامة فلفل الصبى ، وهو ، الرجل الذى ناهز الأربعين ، يبدو ثلاثة أشبار لا أكثر • وبعد أعوام جاء فلفل يرتدى عفريتة زرقاء ، ملأها

الشحم ، وقال له : كيف حالك يا أسطى برعى ؟! .. أصبح الأعور أكثر منه مالا ، لأنه صحيح معاف ، وليس قزما مثله .. لقد فكر برعى يوما أن ينضم الى مدرسة لتأهيل المعوقين ، فهو باعتباره قزما ناتىء الصدر ، مدبب الظهر يساعده ذلك على أن يتأهل ، يكتسب خبرة من تدريب يتسق وعجزه ، ويستفيد بنسبة الخمسة فى المائة المفروضة على المنشآت لتشغيل العجزة المؤهلين لديها ، وتمكن برعى أن يجتاز الاختبار ، وأصبحت لديه شهادة تبصم على ذلك . غير أن محاولته أن يستخدم فى احدى هذه الشركات باءت بالفشل . كانت تستخدم الأعمى والأكتع وغيرهما من أصحاب العاهات ، أما الأقزام فلا تفكر فى تشغيلهم . واستمر برعى فى دكانه الصغير وسقط قيده فى مكتب العمل ، ولم يفكر أن يجدده فى مواعيده . أصابته حالة من اليأس كبيرة . ما هذه الدنيا التى تعطى أصحاب الجمال المال والشباب والقوة وتحرم القبيحين أو المشوهين من المال والشباب ؟ ألم يكن أجدر بها أن توازن فى هذه الحالة ؟ أم أن نصيب الأسد يأخذه الأصحاء ويحرم منه المرضى وهم أولى به ؟ .. أمعقول أن يعيش محروما جيوبه تصفر من الخواء كالقوقعة ، ولا تمن عليه السماء بثروة يداوى بها كل الأسقام التى تكتنفه ؟ . لقد أدمن أوراق اليانصيب ، وفكر يوما : لو كسب ألف جنيه ماذا يفعل ؟ .. فانتابته الرغبة أن يأكل بها لحم رأس عجالى على فتة بالأرز والخل .

ويأتى فكـــرى المزين ليفتح محله ، ويتقدم منـــه برعى القيصر ويقول :

ـــ ياعم فكرى •• اطلب الراحة فى بيتك •

ينظر اليه فكرى غاضبا ويقول :

ـــ ان الشمس تدخل محلى هذا بألف جنيـــه فى اليوم ، ولا تتفضل أن تدخـــل من شباك بيتى بألف مليم •

يهز رأســـه آســـفا ويقول :

ـــ أســـتقول لى ؟ •• أنا أعرف أنك تســـكن فى الدور الأرضى •• أما أنا فأسكن الدور تحت الأرضى • أدخله منحنيا وأخرج منـــه أكثر انحناء •

يقول فكرى بحسرة :

ـــ تعال أحلق لك شـــعرك ••

يشوح فى وجهه ويقول :

ـــ يا عم ! •• وهل أنا أملك قرشا أستطيع أن أعطيه لك ؟!•

لم يحـــــاول برعى أن يحـــرج احســـــاس فكرى المزين ويقول له :

« ان يدك ترتعش ، وقد تجرح قفاى » •

وبينما يمضى الى محله حاملا الشاى من المقهى القريب ٠٠ والناس تذهب وتجىء ، خليـة نحل فى شـارع سعد زغلول ٠٠ وتواجهها خلايا أخرى فى الشـوارع القريبة ٠٠ يجد فتاة ترتدى فسـتانا أحمر اللون ٠ قـد أسدلت شعرها على كتفيها ٠ ورغم قصر قامتها الا أنها تكورت وانتفخت فبـدت تستجدى شـهوة الناس ٠ ويتأملها بامعـان ويصرخ :

ـ من ؟ ٠٠ تفاحـة ؟ ٠٠

تقول فرحة بلقـائه :

ـ كيف حالك يا أبى ؟٠٠

انها تناديه بأبيها ٠٠ بعـد أن دخـل أبوها السـجن وتكفلها برعى منذ طفولتها ٠ وزوجها لهذا اللبنانى المشـبوه ، وها هى ذى تعود بعـد غيبة طويلة ٠ يقـول برعى هاتفا :
ـ أنا غير مصـدق !٠٠

٦

يترك سمسم دكانه مفتوحا ، ويتوجـه الى المعلم زينهم ، وهو يدخن النارجيلة على باب دكانه ، وصبى آخر يغطى اللحوم بالشـاش ، وينش الذباب ٠

يقول له : أتدرى ماذا حدث لعنتر يا معلم زينهم ؟

يتأمله المعلم بامعان ولا ينطق .

ــ عجزت قدمه .. أصبح مكتوبا عليه أن يكون أعرج .

يشعر المعلم بصـــدمة ، غير أنه لا يسمح لها أن ترســم معالم الألم على وجهه ، ويقول بغلظة :

ــ يســتحق .

يسأل سمسم ، وهو لا يزال يقف أمام المعلم ، والآخـــر يشـــد أنفاســا قوية من النارجيلة ، يدخن فيها صدمته :

ــ الولد كان شــهما .. ولم يفش بما اقترفته بحقه .

ترمش عيناه غبطة ، بينما سمسم يوصيه قائلا :

ــ يجب أن تعوضه يا معلم .

يقول سمسم مرة أخيرة قبل أن يمضى :

ــ أقترح عليك أن تشترى له أحــد الدكاكين التى تبنى فى بيت القسيس بجانب صــاحبة البن .. وليبـــدأ بها حيــاته العمليــة .

يهز رأســه ويقول :

ســأفكر .

يعود سمسم الى دكانه ، وهــو يلعن الرجــل فى قرارة نفســه •• جشع يغش فى اللحم ، ويزنه بأوراق تكاد تصــل الى رطل ، ويضمن اللحم كثيرا من الدهن ، ورغم ذلك يتكاثر عليــه الخلق ، ويربو ماله • ولكنه لا يبــدو عليه شىء • ويجد عثمان البحراوى ــ الرجــل العجــوز ــ جالســا أمام دكانه المجاور له •• وكان يبيع لوازم البناء •• ألقى عليــه التحية ، ويســأله عثمان البحراوى :

ــ ماذا حــدث ؟

يتمتم قائلا :

ــ عالم كفــار •

يهز عثمان البحراوى رأســه ، ويتأمل •• نعم •• قليل هم المؤمنون • كل ما اســتطاعه أن ينشىء ابنه الصغير عوض على التدين وحب الله ورســوله • ولكنه لم يستطع أن يغرس هــذه الأخلاق الكريمة فى قلب ســيد ابنه الكبير • وها هــو الصــغير يحيا فى ظله ، والكبير شــارد مثــل عمــه •• نعم يا حسنى ، لقد صعدت الى سلم المجد ــ كمــا تقول ــ وجرى المــال فى يديك ، وتركت مهنتنا التى نشــأنا عليها •• ولكنك بعت رجولتــك •• مجرد مغنى للأغانى الخفيفــة فى الأفــلام المضحكة الهزلية أو الهزيلة •• حقــا ، تسكن دارا جميلة تطل

على ترعة المريوطية • وأولادك دخلوا المدارس ، لكن هل هـذه مهنة كريمة : هز الوسـط والقاء المونولوجات ؟ •• كم طلبت منك يا حسنى يا بحراوى أن تقلع عن ذلك ، فما كان جزائى الا أن خاصمتنى •• خاصمت أخاك شقيقك ولحمك ودمك من نسيج أبويك •

يخرج عوض من الدكان بعـد أن كان يعبىء أسـمنتا لأحد العملاء ، ويقف بجانب أبيه • بدين ، ممتلىء ، قـوى ؛ وجهه مشرق مثل حسنى البحراوى ، ولو أنه ليس ممصوصـا مثله ومثلى •• يبدو أننى ــ وأخى ــ ورثنا العلة ، فهزلنـا ، وورث عوض وحسـنى بدانة أمهمـا وصـحتها ، فلم تعبث الأمراض بهما •

يمر عليهما سيد فجأة ويقول :

ــ السـلام عليكم •

يرد عليـه سمسم وعوض السلام • ويبادره أبوه قائلا :

ــ أين أنت يا سـيد ؟

ــ يا أبى •• أنا ألتقط رزقى من هنـا وهناك ••

ــ ألا تسـاعدنى فى دكانى يا سـيد ؟

ــ ألا يكفيك عوض مساعدا ؟••

ـ وماذا تعمل ؟

ـ أعمل نقاشا لدى بعض المقاولين .

يخرج من جيبه عشر جنيهات ويضعها فى جيب أبيه :

ـ هذا بعض ايراد اليوم .

يجن سمسم ويقول :

ـ عفارم عليك يا سيد .

ثم يسأله :

ـ ألا تأخذ عوض معك ؟

يهز عشمان ويقول :

ـ ألا تبخل علينا باقتراحاتك ياسى سمسم ؟

ويردف عوض عشمان قائلا : اقتراحاته غير مسموعة يا أبى .. فلا تحزن .

يرتبك سمسم .. ويواصل رتق حذاء كان فى يده . أيكلمه ولد بهذه الجرأة ؟ ولد لا يصل عمره الى عمر أولاده ؟ .. حقا زمن غريب ! .. والعجيب أنه تقى ورع .. أحيانا يكون للعلماء هفوات ! حقا .. زمن !. ولا ينهره أبوه بشىء ، فان رأيه لا يختلف عن رأى ابنه كما يبدو .

٧

أيمكن أن يموت هـذا الفتوة المفتول العضلات ذو الجرم الضخم ؟ .. من كان يصـدق أن المعلم زينهم سـوف ينتقل الى رحمـة الله بهذه السرعة ؟ .. ومات ليس فى عنقـه أى دين . بل اكترى لعنتر المحل المجاور لصاحبة محل طحن البن . وأعطاه تعويضـا عما حدث من عرج فى قدمه اليسرى . وافتتح عنتر محل كواء .. واسـتخدم معه رجلين .. أصـبح الفتى الصغير صاحب محل ويديره .

وتقول له ماريكا صاحبة محل طحن البن :

ـ أرجو ألا تؤثر على الأقمشـة والبنطلونات والقمصان رائحـة البن ؟!..

يقول عنتر بأدب :

ـ يا مدام ماريكا .. نحن فى خدمة البن وأهل البن ..

ويأتى سمسم ليبارك له افتتاح المحل ويقول :

ـ الحمد لله أن الرجل مات بعد أن وفى بوعده لى .

ـ أنت يا عم سمسم الخير والبركة .

— يا بنى أنت ومحمود ولديا ..

— وما أخبار محمود ؟

— تصور : انتسب هناك لكلية الحقوق ، ونجح الآن ونقل الى السـنة الثانية .

— كم أنا فخور به .. لقد أوحشنى الفتى .

— يبدو أنه لن يزور مصر الا فى الصيف القادم .

— ألا يحصل من عمله على أجازات ؟

— نعم .. ولكنه يمضيها فى المذاكرة والامتحانات .

— كان الله فى عونه .

أبناؤك يا سمسم لا يرضون بحالة الفقر .. ها هى وداد سافرت الى السعودية للعمل فى مستشفى وزارة الدفاع هناك . وهاهى ثريا تقبـل ابن جارتها لتزف اليه ، ولن تبقى معه فى الحارة ، تريد أن تسـتقل وتخرج الى الدنيا وتسكن فى مدينة الملك فيصل .. تريد أن تتبرأ من حارتها ومن أبيها الاسكافى .. وماذا ستفعل أنت الآخر يا محمـود حينما تعود ؟ .. الجلود تتنكر لرائحتها يا خلق .. وهى بصـدد دبغ اهابها بقوة حتى تختفى الرائحة !.. أنا الرائحة الكريهة التى يهربون منها !.

يتوجه سمسم لشراء بن من ماريكا •• ويدخل عليها المحل ، وهى تعطى عميلا طلبه •• يراها لا تزال فى شبابها ، يونانية تزوجت وعاشت فى مصر • وأنجبت ابنتها الوحيدة ولم تغادر مثل بقية اليونانيين الأرض الى اليونان أو بعض دول العالم ، نبات صارم لايرضى أن يترك تربته •• لقد آثرت أن تستمر تتاجر فى بيع وطحن البن فى مصر حتى تموت •• بل استمرت فى هذه التجارة تساعدها ابنتها ماريا رغم موت زوجها • يقول لها سمسم مبادرا :

ـ أريد بنا مما يعدل المزاج •

تضحك ماريكا :

ـ مثلما تعدل أنت القدم يا سمسم !•• سوف أعطيك بنا يعدل الدماغ •

أصبحت ماريكا بنت بلد مثل ابنتها •• ولو أنهما لم يتقنا بعد اللهجة الدارجة •• لا تزالان تتعثران فى الحاء والعين والضاد والقاف من حروف تشتهر بها اللغة العربية •

يعود سمسم الى دكانه ، ويلقى السلام على عثمان وابنيه عوض وسيد ، ويواصل أعماله ، وقد وضع لفة البن بجانبه ، ولا يتدخل فى حديثهم • فقد آثر ألا يتدخل حتى لا ينطق

ذلك الرجل العجوز ما يحرج احســاسه من الكلام • ويواصل عوض الاستهزاء به • ليكن حيوان قوقعة يختفى فى أصدافه •

يسمع عثمان يقول :

ــ أريد أن تكونا متحدين بعد وفاتى •

يقول عوض :

ــ بعد الشر عنك •

يرد عثمان باصرار :

ــ ذلك أمر مكتوب علينا •• لا أريدكما أن تختلفــا ، سويا أموركمــا بالحسنى وبالحديث الهادىء •• أريدكما عصبة واحدة وعضوا واحدا •

يقول سيد بعد تفكير :

ــ سنكون عند حسن ظنك يا أبى ••

يقول عثمان بتأمل :

ــ أنا لم أجرب شريكا معى • كنت أوثر أن يكون شريكى أخي حسنى البحراوى ، ولكنه كما تعلمون أصبح مونولوجستا شــهيرا ، ولفظ مهنتنا •• أما أنتما فكما هو مؤكد ســتكونان

شريكين • والشركة في بعض الأحيــــان تجلب الخــلاف •• وأوصيكما بألا تختلفا •

ولم يتسمع سمسم بقية الحديث •• كان غارقا في مشاكل زواج ثريا •• اذ مهمــا كان فقره ، فلابــد أن يشرفها أمــام زوجها • والنقود فى علم الغيب ، ولكنها آتية • ان تطبيق قانون الاصلاح الوظيفى يســير ببطء ، وتفســيراته كثيرة ، ولكنها ســتخدم في النهــاية مدرب أبناء الاصــلاحية على صــناعة الأحذية •• وحينما أقبض الفروق ســأجهز بها الست الأخصائية الاجتماعية •• والله عشت يا سمسم وشاهدت بنتك تتزوج •• ولو أن الأولى لا تزال تفضل أن تكون عانسا على أن تتزوج •• أيعوقها أنها تستنكف أن يكون أبوها اســكافيا ؟ ان المجرمة لا ترســل حتى خطابات من السعودية • كيف ذلك والعلاقات أصبحت ســمنا على عسل بعد حرب اكتوبر ؟ ألا تسمح لنفسها أن ترســل كلمات رقيقة ؟ •• أيأتى حين من الدهر على كل أب يتألم هكذا من ابنــه أو ابنتــه ؟! وكيف يداوى الآباء المجروحون جروحهم ؟ •• وهل يندمل الجرح الذى يشقه الأبناء فى قلوب الآباء ؟••

يكف سمسم عن اصلاح حــذاء •• ويتأمل حنيفة وهى تحمل أقفاص العنب البناتى • ويتساءل :

ــ ألا يزال العنب حصرما ؟

ــ أبدا •• انه عسل ••

ــ وأين رجلك ؟

ــ غار وغارت أيامه •

ــ كيف ؟

ــ تزوج أخرى يا سمسم •• تزوج المجرم وله فى رقبتى سبعة أولاد • تركنا ولا مال لدينا •• فضل أن يعمل على سيارة أجرة لمصلحة صاحبة مقهى ، وترك تجارة البطيخ • المرأة ثرية حقا • ويبدو أنها قبيحة الوجه مثل وجهه ، وفضلت أن تتزوجه • لأنها لن تجد الا رجلا مثله يرضى بها •

ــ العيب ليس عيبه ، انما عيبك أنت •• لقد تركته حتى لاف بغيرك •

ــ طبعه خسيس ، فماذا أفعل ؟

ــ ظننت أن كثرة العيال سوف تقيده الى جوارك ، فهرب منك وترك لك العيال •

* * *

٨

ابن المرجوشى ينزل من شـقته .. يواجهه برعى بوجـه مضطرب يقول جملته المشهورة :

ــ قهوة يا بك ؟

ــ لا يا عم برعى .. أنا ذاهب الى المحكمة .

يفرك يديه ويقول :

ــ أنا آسف يا سعادة البك على تأخير ايجار الدكان .

يربت الرجل البدين الطويل على القزم الصغير ويقول :

ــ يا أسطى برعى .. أنت مثل أبى .. أو قل أخى حتى لا يتلبسك الغضب ، والدكان دكان لا تستحق عنها ايجارا . واذا ما توافرت لك المـادة دون أن تكلف نفســك كثيرا ، فادفـع .

يرفع يديه للسـماء ويقول :

ــ ربنا يعطيك أكثر وأكثر .. يا رجل يا طيب يا انسان .

يمضى ابن المرجوشى حاملا حقيبتـه الى امبابة .. حينما انتهت أعماله فى الحكومة ، وأحيل الى المعاش ، آثر ألا يستكين فى البيت وقرر أن يعمـل بالمحـاماة .. ان البيـوت خلقت لرباتها ، ومن المستحيل أن يكون ربة بيت !.

ويجلس برعى وقد غمره السرور حتى شعر رأسه . ولو أنه كان يعانى من أفعال تفاحة بعـد عودتها .. لقد أخـذها

اللبنانى المشبوه قطة ذات عينين مغمضتين ، وعادت تسمى لبؤة يخاف منها الجميع على أولادهم . جمحت المهرة وأصبحت تجلب لأصحابها العار .. كيف أستطيع أن أقف فى طريقها وأعترض سبيلها وأجعلها تعود الى الصراط المستقيم ؟.. وهل أنت يا برعى تعرف ذلك الصراط ؟.. أعتقد لو دخلت عليك بجنيهات عشر لسجدت تحتها حتى تشرب هذه الكأس التى تدوخك وتتنفس هذه الأنفاس التى تلوث رئتيك وتنسى أن تدفع الايجار المتأخر عليك .. وتستمر مغلقا دكانك حتى لو جاءك عميل سينفحك بعض المال .. ألم أجده فى اليوم التالى واقفا على دكانى مثل الواقفين فى صف الجمعيات الاستهلاكية ، أنا محتكر هذا الصنف . فى هذا الحى . صنف اصلاح الدراجات .»

وتأمل برعى بعمق .. ألم يفتح زلبطة أمامى دكانا منذ سنين ، ووضع شتى الأصناف من الدراجات ؟ وطفق يتعامل مع الأولاد . فماذا كانت النتيجة ؟ بلع الدكان الصغير ذلك الدكان الكبير .. وانهارت تجارة زلبطة لأنه لم يستطع أن يدفع مصاريف المحل .. كان يكتب على دكانه الكبير : هذه ارادة الله يا زلبطة . وقد خسفت ارادة الله به الأرض وسخطته الى دكان فارغ خال من كل شىء ، وقفل الدكان وتوجه الى حى آخر .. أو لعله طلق تأجير الدراجات وانتهت أعماله بها .

وهاهو الدكان الكبير أمامى مغلقا منـذ أن أشهر افلاسه ومضى •

المهم الآن عليك أن تجد حلا لتفاحة بنت قشطة •• لقد تزوجها اللبنانى ، غير أنه باعها فى سوق الرقيق الأبيض ، وعادت وقد سقطت كل القيم من فوق كتفيها •• ولا حل أمامك الا أن تزوجها •• فمن يا ترى ؟ أيزوجها عوض ؟ أم سيد ؟ أم ذلك الفتى الكواء الذى ظهر فجأة بين أصحاب الحوانيت الصغيرة لعرج فى قدمه ؟ وهل هؤلاء يقبلون بنتا ليست بكرا ؟ •• يجب أن يقع اختياره على الفور على واحد يسترها •• ألم يستر من قبل سالمة الخادمة الصعيدية الأصل ، حينما اعتدى عليها صديق أخيها الفران ، وجاءت الفتاة تشكو له ، تؤثره بسرها •• فما كان منه الا أن أخذها من يدها ودخل على صديق أخيها الفران ، وبهت الولد حينما رآه ، ولم يستهن به لأنه قزم ، وقال له ان لم تعقد عليها فى الحال ، فسوف أبلغ أخاها على الفور • وسوف أشد تلغرافا لأبيها فى الصعيد ، وأنت تعرف جزاء من يثلم الشرف ، خاصة اذا كان شرف البنت •• وتحرك الفران بهدوء ليعقد القران فى حضور أخيها • وكان برعى قد أوصاه بألا يتدخل حتى ينتهى موضوع أخته على خير •• وبعد ذلك ألن يتمكن من أن يحكم هذه القطة المفترسة ؟

لكن كيف ؟

٩

فى الصباح الباكر ، تبدأ جزارة المعلم زينهم تختفى .. سوف يبلعها الزمن العظيم كما ابتلع غيرها من قبل .. باع نورثة المحل لحيدر السمنودى ، ليقلبها الى محل لبيع الملابس الجاهزة .. ويقف حيدر على يد العمال يشير الى الأرفف وطريقة ترتيبها . والأركان التى يريد أن يتركها ليعلق عليها بعض الملابس ، والزوايا التى يبغى ابرازها لتكون مرايا يشاهد فيها العميل ما يرتديه من ملابس .

ويسأله برعى مبتسما :

ـ والأستاذ حيدر من أين ؟

ـ أنا من مواليد الجيزة .. وأبى من مواليدها أيضا .. وجدى .

ـ ولكن ما حكاية السمنودى هذه ؟

ـ هذا لقب العائلة .. ويمكن أن تكون أصلا من سمنود .

ـ أتشرب شايا أم قهوة ؟

ولم يعرف حيدر السؤال الشهير للأسطى برعى .. واعتذر قائلا :

ــ لا .. أنا شربت فى بيتى قبل أن آتى .

لا يصر برعى على الشاى أو القهوة ، فهو دائما لا يصر اذا ما رفض المدعو ويتناسى دعوته اذا ما لاقت القبول .. ويسأل :

ــ هل دفعت خلوا ؟

ــ نعم .. قبض الورثة ألفين وخمسمائة جنيه .. وقبض المرجوشى ألفين وخمسمائة جنيه أخرى .

ــ يا خبر ..

ــ كل ما كان فى حوزتى ، غير ثمن البضاعة .

ــ كان الله فى عونك .

لا أصدق أن بشرا يملكون كل هذه الأموال ؟.. ألهذا تساهل المرجوشى فى طلب ايجار هذا الحق ؟.. لقد جاء بيع هذا المحل ...

ويأتى سمسم ويقطع تسلسل أفكار برعى . ويتذكر برعى أن اليوم يوم الجمعة ، وأن سمسم يفتح محله فى مثل هذا

اليوم . ويصافح سمسم حيـدر ، ويعرفه بنفسه . ثم يتجه الى دكانه ليفتحه وهو يصرخ فى صبى المقهى المقابلة على ضفة الطريق الأخرى :

ــ شاى ثقيل يا بليه !..

ويجلس منكبا على عمله .. لم يكن يظن أبدا أن الأمور سـوف تتأزم بهذه الدرجـة ، يأتى محمود فى أجازة ، ويطلب منـه أن يعتزل العمل بالمحل . ولم لا يعتزل العمل من اصلاحية الأحداث ؟.. انه يعمل اسكافيا أيضـا فى هذه الاصلاحية ؟.. يا أبى أنت تعمل مدرب للصبية هنـاك ..

هـذا الدكان الذى تريد أن تلغيـه هو الذى كون لحم أكتـافك ..

أنا لا أنكر يا أبى ذلك ، ولكن لكل شىء نهاية ، وسوف أعوضك عنه .. سأعوضك بما يحفظ لك مكانتك واحترامك ..

أنت لا تدرى أبدا الى أى حد أجد لذة فى أن أنكب على عملى به ..

يا أبى اننى أريد أن أتزوج فتـاة من عائلة ، واذا تقدمت اليهم ماذا سـأقول لهم ؟ أبى يعمل اسكافيا ؟

اخرس .. أنا صـانع أحذية .. اخرس .. أهذه آخـر تربيتى فيـك !؟.

يا أبى لا تنكر ..

اخرس .. امش الآن من وجهى .. تغربت سنوات وتأتى بعـد ذلك لاهاتنى !!..

يأتى اليـه عنتر ، وهو يعرج ، ويشد كرسـيا من دكان فكرى المزين . يتركه فكرى يشـده دون اعتراض ، ولو أنه يسـتأذن بعد ذلك بأدب ، فيشير اليـه فكرى ببطء أن لا مانع لديه . انه يأتى فقط ليستحم فى شمس الخريف بدلا من حجرته المليئة بالرطوبة . أبناؤه المهندسـون والأطبـاء لا يعرفون لهم أبا اسـمه فكرى المزين .. ما بال الأبنـاء يتنكرون هكذا لآبائهم ؟!..

ـ أنت تعرف يا عم سمسم أن محمود ابنك صديقى .

ينظر اليه سمسم ودمعة حزينة تترجرج فى عينيه :

ـ محمود لم ينم بالأمس لمـا اقترفه فى حقك .

يبلع رضابه حتى لا تقتله الغصة :

ـ محمود يريد أن يعتذر لك لأنه أخطأ فى حقك .

ـ وهل تعتقد أننى سأقبل اعتذاره ؟

١٠

يسمع فكرى المزين كلمات عنتر التى تصل اليـه مدهونة بالهمس • لعـل المرض لم يتغلغل بعـد الى أذنيه • قهر الصحة فى رجليه وقدميه وركبتيه وذراعيه وزنديه ، غير أنه لم يستطع أن يحارب نور العينين وحديد السـمع •

تركوك وحـدك فى الدور الأرضى وتخلوا عنك ، بعد أن جعلت أكبرهم مهندسـا رفيع المستوى ولحق به أصـغرهم • أما الأوسطان : فقد باشر أولهما الجراحة والثانى يضـع يده على داء العيـون • غير أن ضمائرهم ماتت • ولم يذكر واحـد منهم أباه •• أيكون سمسم اسـتطاع أن يبث الحنان والحب والمودة فى أفئـدة أبنائه وأنا لم أسـتطع • وحينما حصـل كل واحـد منهم على شـهادته ، كان يغترب •• الأول اغترب فى الوادى الجديد ، والثانى اختفى فى احدى الدول العربية ، والثالث لحق به كأنما ذهب ليعاونه • أما الرابع فلم يتمكن أن يغادر القاهرة ، ولكنه غادر الدور الأرضى ، ولم يظهر واحـد منهم منذ سـنوات • لعـل موت الأم المبكر قتـل فيهم حب الأبوة ؟••

كان يجب أن تتنازل يا فكرى عن مهنتـك حتى يودوك

ويتقربوا اليـــك • ألو كنت وكيــل وزارة كانوا لفظـوك أيضـا ؟•• أهــذا الدكان الصغير هو عقدتهم ؟ ومن أين كنت ســأعيش ؟• من اعاناتهم ؟• لولا تلك الأموال التى ادخرتها فى المــاضى الزاهر حينما كان هذا المحل يشتغل كخليــة النحــل لكنت الآن أسف التراب • ألا يدركون أنى بعــد أن ماتت أمهم أصبحت وحيــدا ، وأحتاج الى أنيس ، وأتعطش لزيارة منهم ولو لســاعة واحدة كل أسبوع ، تبعث الدفء فى البرودة التى فى قلبى •

يتمنى فكرى أن يمر واحــد منهم بســيارته من أمامه • يعرف أن كلهم أصبحوا من أصحاب الســيارات • ليأت اليـه فى بيته ، اذا كان يشــعر بالعار من أن يأتى اليــه فى دكانه • ولكنهم لا يأتون لا الى البيت ولا الى الدكان !•

أبهذه البساطة العلاقات الســماوية تطحنها المســتويات الطبقية ؟•• أشعروا أنهم طبقــة ليست من طبقتى وتناسوا أننى الذى وضعت بذرتهم ؟

تكاد دمعة تسقط من عينيه •• غير أنها تثبت فى المــآقى ولا تنزلق الى الأجفان •• ولا تجرى الى مجرى الدموع •

تميل رأس الرجل ، وقد مدد قدميه الى الشــمس يمتص منها رحيقها •

ويموت كمدا •

يتحدث برعى القيصر بجدية الى حيـدر السـمنودى .
وكان قد انتهى من اعـداد دكانه الجديد ، ووضع بضاعته فيه ،
وطفق ينتظر الزبائن :

ـ حملناه على أيدينا .. لا تتصـور .. عم فكرى كان
بركة .. وأخذناه الى بيته ـ بيته بجانب دارى ـ وأعـددنا
بسرعة الكفن .. كان المرحوم قـد جهزه . وأخبرنى بذلك منذ
أيام .. كأنه كان ينتظر أن تصعد روحـه وتترك جسـده ..
ودفناه فى قبور الصـدقة بالمنيب .. أنا أعرف هذه القبـور
وكثيرا ما دفنـا بعض اخواننا الفقراء فيها .. لقد وصيت قشطة
زوجتى أن توارى جثتى فيها .. أتتصور أن النقود التى تركها
فى بيته كانت كافية لكل شىء ؟ كأنه يا حبة عينى حسبها قبـل
أن يموت !..

يستطرد برعى بعد أن يزدرد رشفة من الشـاى الثقيـل
وهو يجلس الى مقعده الخالى من المسـائد . بينما يجلس حيدر
بالقرب منه على كرسى خيزران .

ـ الغريب أن أولاده لم يظهروا منذ زمن .. وظهروا فجأة
رغم أن المعروف عنهم أن اثنين منهم كانا مسافرين .. لا أعرف

أين ــ وهو نفسه لا يعرف ، وشكرونا واتجهوا الى الشـيخ لؤلؤ صاحب العمارة المتهالكة ليتفاوضوا معه على خلو رجـل لدكان أبيهم • لعنــة الله عليهم ••

ينهض برعى القيصر ، ويرفع يده بالتحية لابن المرجوشى وهو ذاهب الى ســاحة العدل •• ويبرز جنيهين من جيبه ينفح بهما ابن المرجوشى ويقول :

ــ الايجار المتأخر يا سعادة البك •

يمد ابن المرجوشى يده اليه وهو يقول :

ــ سوف أرسل اليك الايصال حينما أعود من المحكمة •

يرفع برعى يده مرة أخرى بالتحية ويقول :

ــ فى بيتها يا ســعادة البك •

مصائب قوم عند قوم فوائد يا برعى • كان موت فكرى قدم الســعد عليك •

ويجلس من جديد الى المقعد مطمئنا ، ويمد يده الى الشاى الأســود ــ وكان قد وضع الكوب على الرصيف الذى يحيط دكانه ــ ويزدرد منــه رشــفة جديدة •

ــ الأولاد خونة •• خصوصا أولاد ذلك الزمان •

يرد حيدر قائلا :

— بعضهم ينكرون الجميــل •• والبعض الآخر يتفانى فى التضحية • والبعض الثالث يعطى ويأخذ •

وينهض حيدر ليعرض على زبونة تجارته •• ويستغرق برعى فى مأســاته الجديدة •• لقد وجدت يا برعى العريس وهو موافق • المشكلة أن البنت لا تزال متزوجة باللبنانى المشبوه •• عزام سمير البيروتى •• وقد هربت منــه دون أن يدرى •• كان مشــغولا فى معركة داخليــة فى أحياء بيروت الجنوبيــة مع أخيه عرام سمير البيروتى •• وانشــغل بعد ذلك فى جنازة أخيــه الشهيد ، وقد سفك دمه برصاصــة طائشة • وأفلتت البنت الى المطار وفى جيبها نقود وفى حقيبة يدها جواز ســفرها وشهادة بموت عرام ســمير البيروتى • وتهمس له أن الوضع لن يختلف يا عمى برعى لو •• لو وضــعنا نقطة واحــدة على عرام •• بنفــس الحبر • حبر قلم باركر كان يكتب به كاتب الوفيات • وتتحول الزوجــة الهاربة الى أرملة • وكيف لا تقر ولا تعترف أن زوجها مات وهــذه شــهادة وفاته مختومة بخاتم السلطات اللبنانية ؟

لكن عزام يعرف أنك هربت • وقد يطاردك يا تفاحة •

لن يتيسر له أن يترك المعركة المشــتدة فى لبنــان ويأتى الى مصر • يعتبر نفســه — رغم أنه قواد كبير — أحد زعماء المليشيات • هو فى الصباح قائد فذ •• وفى المساء يرقص الدبكة•

هو فى الصباح يطلق الرصاص بعد الرصاص ـ ويهدم المنازل ويفرق الجماعات ، وفى المساء يتجرع الخمر . ويوزع الرقيق الأبيض على الأسياد ذوى الحيثية . ويضرب من تفكر فى الامتناع عن الانصياع .. أبرزت لك الشهادة . لقد زروتها بنفس الحبر . وضعت نقطة فقط فوق العين ، فأصبح الاسم عزام ، مات زوجها بالنقطة وأصبحت أرملة .. الأرملة الكذوب ، اللعوب . انها توافقنى على الزواج رغم أن المعلم صدوق صديق صاحب الفرن تجاوز الخمسين . لكنها ستنعم معه بالنعيم الذى يغرق فيه . لا تعرف أمها الا أنها أرملة ، وكانت حينما جاءت كذبت وقالت انها أصبحت مطلقة .. ولم تناقشها قشطة فى هذا التبديل والتغيير كأن من حقها أن ترسم صورا لحياتها مختلفة فى كل وقت وأى زمان . أنا سأكتم الخبر .. لا مسئولية على .. ماذا أقول لفتاة قالت لى ان أهل زوجها طردوها من بيت زوجها بعد وفاته ، وقالوا لها يا مصرية يا فاجرة عودى . وجاءت تحمل معها شهادة الوفاة ؟ فكيف أنكر أنها أصبحت بلا زوج ؟.. أيجب على يا فضيلة القاضى أن أذهب الى لبنان وأتحرى .. ثم ما أنا ؟.. أنا لست الا زوج أمها .. علاوة على أنى أمى لا أقرأ ولا أكتب . أولاد الحلال قرأوا لى وثيقة الوفاة .. واذا كنت تشك فلا عليك الا قراءتها .. الوثيقة تؤكد أن عزام قد مات .

* * *

١٢

أمعقول هذا الرجل ؟.. يدعى أن ٦ اكتوبر آخر الحروب. ثم يحارب ليبيا يدكها بطائراته !. اذن لم تكن ٦ أكتوبر آخر الحروب !.. يا ترى يا محمود يا ولدى ما حالك الآن ؟..

يسرح وهو يدخل ابرة ملتوية فى حذاء .. الحمد لله أن الحرب لم تستمر طويلا .. يبدو أنها كانت عملية تأديب وابراز للقــوى .

يمر به عواد الأسمر ويسأله :

ــ أين أنت يا أخى ؟

ــ الدنيا تلاهى يا سمسم .

ــ أيحب أن أراك كلما كان هناك نعل تريد اصلاحه .

ــ لا .. أبدا .

ــ اذهب الى المقهى وأحضر كرسيا .. عمك فكرى المزين تعيش أنت .. كنا نستلف منه الكراسى .

ــ يا خبر !.. لم أســمع ...

ــ مات فى لحظات ، ودفن فى ساعات ، ونسى فى ثوان .

ـ شاعر أنت يا سمسم .

ـ شاعر بالخيبة وحياتك

حينما يأتى من المقهى ، ومعه الكرسى ، يلحق به الصبى حاملا كوبين من الشـــاى .

ـ هذا واجب علينا يا سيد عواد .

ـ اشرب ولا تتكلم ..

يمد يده فيتناول الكوب ، وهو يقول :

ـ لا .. لا يمكن مصادرة حريتى فى الكلام .. حقيقـــة هناك أحزاب .. كانت اسمها منابر . لكن منبرى أنا لا يموت.

ـ يا عمى .. ارقد .. ادخل الخندق

ـ حتى فى الخندق ســأتكلم .

ـ وماذا ســـتقول ؟

يضحك وهو يقول : لا أدرى .

يبادله عواد الأسمر الضحك ويســأله :

ـ ماذا حدث فى اصلاحك الوظيفى ؟.

ـ رقيت وقبضت ، وبلع المجمد جهاز البنت .

ـ احمـــد الله أنك كنت تملك شيئا ، والا كان موقفك سيكون حرجـــا

ــ ولا حرجا ولا شــيئا .. العريس من حارتنا ، وهــو يعرف امكانياتنا .. أنا ســاعدتها فقط حتى ترفع رأسها قليلا أمام زوجها . أرسلت اليها أختها وداد مبلغا .. وها هى ذى الحرب تحدث بين ليبيا ومصر .. ولعل أخاها يتعطل فى ارسال نجدة أخرى لأختــه .

ــ المهم أنهما تزوجا .. أم لا يزالان مخطوبين ؟

ــ لا .. تزوجا .. ولكن عليهما أن يؤثثا بيتهما بمفردهما .

ــ اتركهما .. فهذه أصبحت سنة الحياة الآن .

ويمر بهما ســاعى البريد متجها الى داخل الجيزة مخترقا شــارع سعد زغلول .. يناديه سمسم قائلا :

ــ ألا يوجد معك خطاب لى ؟

ــ ما اسمك ؟

ــ ألا تعرفنى ؟.

ــ لست قادرا على حفظ أسماء كل أهالى الجيزة .

ــ أنت رجل البريد بحينا .

ــ يا عمى .. خلصنى .. ما اسمك ؟

ــ اسمى .. سمسم .

ثم يتدارك ويقول :

— ســامى جاد الله .

— وأين تســكن ؟

يضحك ويقول : فى حارة « رابعة » ...

— يا لك من رجل .. هل هذا عنوان ؟!

— فضيحة أن أقول لك اسم الحارة .

— ولكنه عنوانك ، فهل تتبرأ من عنوانك ؟

يبحث الرجل عن اسم سامى جاد الله ، ويجد له فعلا خطابا من ليبيا . عثر ســاعى البريد على كنز لسمسم مدفون فى حقيبته القميئــة .

١٣

يبدو أن المصائب لا تأتى فرادى ، بل جماعات !. فقــد انتقل بعــد أيام الى الرفيق الأعلى عثمان البحراوى . وحضر جنازته أمام دكانه المقابل لبيته : أخوه حسنى البحراوى . بكاه حتى أن أحــدا لم يصــدق أن الرجل الذى يوزع النكات ذات اليمين وذات الشــمال يمكن أن تسيل الدموع من مآقيــه . ووقف عوض وسيد ابناه معــه يستقبلون المعزيين . وفى داخل البيت فى البدروم طفقت بناته يلطمن . وزوجه البدينة تصرخ وتنــدب .. لم يكن يخرج معها أبدا ، كان يبدو مثل الســبع افندى الرفيع القصير وكانت هى رفيعة هانم البدينة القوية .

ينتهى المـأتم فى الفجر .

ويجلس حسنى البحراوى وعوض وسيد أمام الدكان .. والعمال يتناولون الكراسى لوضعها على العربة توطئـة لاعادتها الى مخزن الفراشـة .

ــ أريدكما رجلين .. قلب كل واحد منكما على الآخر .. لا تنظرا الى ما حدث لاخوين من قبلكما .. أبوكما وعمكما . لقد اختلفا فى المشـارب لذلك افترقا . أما أنتما فأهل صـنعه واحـدة وشريكما واحـد .

ــ سنبدأ يدا واحدة .. ولن نفترق .

قالها الاثنان فى نفس واحـد .

يثرثر حسنى البحراوى بلا توقف . والرجلان يسـتمعان اليه بصبر .. هو يحب السهر منذ صباه . والفجر يشقشق ، ونور الصباح يغطى المكان ، والشـارع تسمع فيـه خطوات السابلة . غير أن حسنى البحراوى لا يزال يتكلم ، يمنى عوض نفسـه انه سـيصلى الفجر حاضرا ، فعليه أن يصبر وسـيد يلعن عمـه ، ويكاد ينفذ صبره ويكاد يقول له « قم فـذ ، غادرنا » . غير أن حسنى البحراوى لا يزال يتكلم . يبدو أن القاء المونولوجات والنكات على الجماهير ، يساعده جـدا على الانتقال من حكاية الى أخرى .

ينهض عوض ويقول :

ــ لقد تعبت معنا اليوم يا عمى •

١٤

يقول سمسم محدثا نفسه : لو كان عثمان ليس له ولدان لتدخل برعى القيصر فى الجنازة من طقطق الى سلام عليكم • غير أن الولدين تقبلا منه التعازى ، ولم يجد بدا من أن ينصرف • كان يجرى وراء النعش ، والدموع تنهمر من عينيه ، لكنه لم يكن قادرا على حمله مع الآخرين • ولكن فى حالة فكرى المزين : تدخل ، وفتح باب بيته •• أو سمح لنا بفتحه ، وهو يقودنا ، ودخل الحجرة ، وكأنما يعرف كل أسرارها •• وتمكن من الاستيلاء على الكفن ، وصرف نصفه للرجال بعد غسله ، وأخفى النصف الآخر •• قزم جرىء حقا ، بل لعله دس النقود التى ادخرها المرحوم فى جيبه دون أن يلحظ أحد • وتباهى بأنه يصرف على الجنازة • غير أنه رفض أن يتناول مالا من أحد • بل رفض تعويض أبنائه • قال : عم فكرى بمثابة أخ أكبر لى • شهم يا ولد •• أيقف محمود مثل هذا الموقف فى جنازتى ولو على حسابى الخاص ؟ أم أنه سيبقى فى ليبيا حتى ينتهى الأجل ؟•• غريبة أنه صامد رغم أن ليبيا تمنع كثيرين من المصريين من دخولها • وتقوم بترحيل آخرين يعملون بها • كل ما تذكره محمود فى عقد قران أخته أنه حصل على

ليسانس الحقوق .. باركني يا أبى . لكن متى سـيعود ؟..
أو ما هى المعونة المـالية التى سينفحها لأخته .. لا خبر .

تدخل ثريا الشارع ، وقد علا وجهها البشر ، وتقول :

ــ هل أنت مستعد لسماع خبر سعيد ؟

يقول ، والألم يعتصره :

ــ ومن ذا الذى يكره يا ثريا ؟

تقول والدموع تترقرق فى عينيها :

ــ محمود أرسل لى ألف دولار .

تنهمر الدموع من عين سمسم ويقول :

ــ أصيل يا محمود .. أصيل يا ولدى ..

ثم يتساءل :

ــ ماذا ستفعلين بها ؟

ــ سـوف أشترى بقية العفش .

ــ هل الشـقة أعجبتك ؟
ــ رغم أنها بعيدة .. لكنها صغيرة ومريحة .
ــ على بركة الله يا ابنتى .

ثم يتلفت اليها ويقول :

ــ أريد أن أراك أنت وزوجك سويلم •• لا تذهبا مثــل وداد وتطفشــا العمر كله •• وتمضيان مثل محمود الذى أكل الاجازة الســنوية علينــا •

ــ لا تخش شيئا يا أبى •• نحن أولادك •• ومصيرنا اليك•

ثم تبرز خطابا من حقيبة يدها ، وتقول :

ــ وهذا خطاب من وداد ؟

ــ هل قرأتيه ؟

ــ لا •• لم أفتحه •

ــ اقرئيه اذن •• فقد نسيت نظارة القراءة فى البيت •

ــ اذن لم فتحت الدكان ؟

ــ تســلية يا ابنتى •• هل ســأجلس على المقهى مثــل العاطلين ؟!••

١٥

بسبب أن دكان حيدر السمنودى للملابس الجاهزة وملابس الأطفال لصيق بدكان برعى القيصر لتصليح وتأجير الدرجات ، فكثيرا ما يتجاذبان أطراف الحديث قبل أن تدب الأقــدام فى

الشـــارع ، ويكثر السائلون عن الملابس ، فيلتفت اليهم حيدر . ويترك برعى يتجرع الصبر وحده على ما فى الدنيـا . وينتظر الفرج فى صورة رجل يجر دراجته ساعيا اليه طالبا اصلاحها .

ـ كنت أبحث عنك اليومين المـاضيين لتشرفنا ..

ـ خير انشاء الله ؟

ـ أبدا .. عقد قران تفاحة بنت زوجتى .. بنتى .

ـ ألف مبروك يا معلم .

ويتمهل حيـدر ويقول :

ـ الحقيقة نزلة برد داهمتنى .. فرقدت .

يقول برعى باستفاضة :

ـ البنت عادت من لبنان أرملة .. كنت أعتقد أنها طلقت وطردها زوجها من بيروت .. أصله رجـل مشبوه شرير .. كارثة لحقت بنا من حيث لا نحتسب .. غير أنها اثبتت أنه قتل فى الحـرب الدائرة الآن فى لبنـان بلا توقف .. اعتقـد أن القيـامة سـتقوم حين تتوقف هـذه الحرب . قلت يا برعى ليس أمامك الا سـتر البنت . ولو أنها بنت زوجتى ، غير أنها فى دارى ، وأنا مسـئول عنها .. انها بمثابة ابنتى .. وسـعى

الى المعلم صـدوق صـديق يطلب يدها • لم أمانع • من يتزوج أرملة غير رجل تعدى الخمسين من عمره ؟

ــ وكيف أثبتت أن زوجها قتل يا أسطى برعى ؟

ــ لقد أحضرت معها شهادة الوفاة •• انها بنت ناصحة •• أمها ذكية ، وورثت عنها الذكاء •• لم يفتها بعـد أن طردهـا أهل القتيل ، باعتبارها شـؤما عليهم ، أن تستولى على شـهادة الوفاة • بل أحضرت تصريح الدفن أيضـا (هذه من عنـدك يا معلم برعى •• أليس كذلك ؟) •

ــ أتعرف أننى سافرت الى لبنـان ؟ قضيت هناك خمسة أعوام ، كان لى دكان للملابس الجاهزة فى شارع أحمد ماهر ، وأغلقته وسـافرت • أردت التجارة هناك ، وحينما اشـتدت الحرب قررت أن أعود ••

ــ لهذا كان معك خمسة آلاف جنيه ، وأنا أقول كيف يكون رجـل فى هذه السن ، وله خمسة آلاف جنيه يدفعها خلو رجل لابن المرجوشى ولورثة المرحوم زينهم !•

يستطرد حيدر قائلا :

ــ قضيت أحلى أيامى هنـاك •• أتعرف ؟•• فقد تزوجت لبنانية • أجمل أيام حياتى قضيتها معها ، وحينما اندلعت الحرب

الأهلية ، أخذت عزالى ورحلت . عدت الى مصر . أتعرف ؟.. لقد كان محلى فى شارع أحمد ماهر أكثر اتساعا من هذا المحل . أشعر بضيق كلما دخلت هذا المحل . أشم منه رائحة الدم والعفن . ألم يكن دكان جزار ؟

١٦

يمر أمين عبد المسيح بدكان عنتر ، ويلقى التحية ، ويردها عنتر ، وصبيه مستمر فى كى الملابس .. عنتر يعرف أمينا جيدا . هو منافسه فى نفس الشارع فى كى الملابس . لكن دكان أمين يتطرف فى أقصى الشارع ، ودكانه يقع فى منتصفه .

يتوقف أمين ويتساءل :

ــ ألن تكف عن محاربتى يا عنتر ؟

يضع عنتر المكواه على سطح حديد مجوف ، ويتقدم بعرج ليقابل أمين :

ــ لم يا معلم كفى الله الشر ؟

ــ يا بنى .. بكم تكوى القميص ؟

ــ بخمسة قروش .

ـ لكن ألا تعرف أنا كلنا نكويه الآن بعشرة قروش .

ـ ولم تكويه بعشرة قروش يا معلم أمين ؟

ـ لأن الجاز ارتفعت أسعاره .. أخرجوه من التسعيرة وأصبح الآن حرا ، فانطلق كالجواد الجامح لا يتوقف ، مثله مثل بنزين السيارات .

ـ يا معلم اذا كان لتر الجاز زاد خمسة قروش أو عشرة ، فهل معنى ذلك أن يزداد ثمن كى القميص خمسة أو عشرة قروش ؟!

ـ يا بنى ، ان كل شىء يزداد سعره .. لم لا تتماشى مع الطائفة ؟ كل أصحاب دكاكين الكواء زادوا الأسعار ، فلم تقف فى طريقنا ؟ هل زدنا الأسعار الا بسبب أن أثمان السلع كلها زادت ؟

ـ يا عم أمين .. أنا تحت أمركم ، وعلى العموم أنا لن أمنع عنكم رزق كتبه لكم الله .. وهو الذى يوزع الأرزاق.

ـ طيب .. سعيدة .

ـ سعيدة .. يا معلم .

يدخل عنتر دكانه ، ويتحسس سخونة المكواه ، فيشعر

أنها بردت • يضعها على النار ويفكر : أأمشى مع تيار هـؤلاء المستغلين أم أستمر فى طريقى ؟•• وماذا سـيفعلون بى ؟ ماذا يكون جزائى لو خالفتهم ؟•• أيمكن أن يؤذينى أحدهم ؟

يترك مرة أخرى المكواه ، ليستقبل آخـر عزيز عليـه : محمود سـامى جاد الله ، عاد من ليبيـا أخيرا •• يحتضـنه بعنف •• كانا معـا فى المدرسـة الابتدائية ، فلما مات أبوه ، اشـتغل صـبيا لدى المعلم زينهم الجزار • أما أبوه سمسـم فاستمر على قيـد الحياة ، فاستمر محمود فى المدرسة ، كم يلعب الآباء دورا خطيرا فى حياة الانسـان •

ــ متى جئت ؟

ــ جئت بالأمس •

ــ وكيف حالك ؟

ــ سـأتزوج •

ــ بمن ؟•• أواحدة أعرفها ؟

ــ فتاة جميلة مثقفة متعلمة •• تعرفت بها فى ليبيـا •• أبوها وكيل وزارة فى وزارة السياحة •• اتفقنا على الزواج •• وسوف أتقـدم اليها فى يوم الخميس • سوف أعقـد قرانى عليها وأعود من جديد الى ليبيا لتلحق بى •

يسهم عنتر ، ثم يسأل :

ــ ألن تكون عقبة أمامك أن أباها وكيل وزارة ..
وأبوك ... ؟

يبتسم محمود ابتسامة مريرة :

ــ صارحتها بالحقيقة أن والدى مدرب فى اصلاحية
أحداث ، وقالت اننى سوف أتزوجك أنت يا محمود .. لا وظيفة
أبيك .

ــ على بركة الله .

ــ ألم تصارحها بهذا الدكان الصغير يا محمود ؟

ــ لا .. ولكننى طلبت من أبى أن يقلع عن فتحه بعد
الآن .. ولو قبل أن أتزوج . وسوف لا يعود اليه حتى
أسافر ثانية ، بل قال لى ان العمل أصبح غير مجد بعد
أن حددوا مواعيد العمل حتى الساعة السابعة مساء ، لأنه
يضطر أن يعود فى الساعة الرابعة من المرج . وحينما يتجرع
تعسيلة القيلولة . تكون الساعة السادسة قد أزفت ، فهل يفتح
المحل ساعة واحدة ؟..

ــ ويوم الجمعة ؟

ــ لقد وعدنى يا عنتر •• فلا تعقدها •

ــ أخاف على زيجتك يا صديقى • لأنى أعرف هــؤلاء الناس أصحاب الدكاكين الكبيرة •

ــ هل جعلت أبوها من أصحاب الدكاكين الكبيرة ؟

ــ اذهب الى أبيها فى وزارة السياحة فسوف تراه يجلس فى دكان كبير عرضه ثمانية أمتار وطوله ستة عشر مترا •

يضحكان ••••••

١٧

يترك برعى القيصر شارع النــادى ، وينحرف الى الشارع الطويل •• غريب هــذا الشارع : تتكاثر الدكاكين الصغيرة فى بدايته ، وتنتهى عنــد دكان أمين عبد المسيح •• ثم بعــد ذلك تختفى منــه حتى آخره •• ويمر بزنوبة بائعــة الفراخ : امرأة جبــارة تتاجر فى كل شىء ، وتحكم زوجها بالأولاد ، وتسيطر على تجارة الدواجن بقوة •• وفى نفس الوقت تنافس حنيفة فى تجارة البطيــخ ، تلك المرأة التى هجرها زوجها بائع البطيــخ ليتزوج من أخرى صاحبة ســيارة أجرة ، وترك لها أولادها •• والميزة الوحيدة التى تجمع المرأتين كثرة العيــال ، وعيالهمــا

تجرى فى الشوارع بثياب ممزقة كالحـة ، لا تفكر فى مدرسـة
ولا تفكر فى أكثر من يومها ٠٠ حيوان يجرى وراء حيـوان
أشـبه بالقطط الضـالة ٠٠ أتحمـد الله اذن يا برعى على
وضعك ؟ لم تنجب من امرأتك الشرسـة ولو فأرا ٠ أيكون
السبب أننى قزم ٠٠ معـدنى يختلف عن معـدن قشـطة ٠
مثلما لا يمكن أن ينجب القرد من الانسـان أو الانسـان من
القرد ٠ غير أن قشـطة تبدى فى كل ليلة ما يدل على تمتعها !٠٠
أيكون تمثيلا يا برعى ؟٠٠ لكن هـل لو كان ذلك تمثيلا يستمر
هكذا مددا طويلة ؟! ان الممثل يأتى عليـه يوم ويمل تمثيـل
نفـس الدور ، لكن ذلك شىء مثـل الأكل والشرب واللبـس
يتجدد فى كل وقت ٠٠ يحدث الجوع ثم الاشباع ، فتشـعر
بالراحة ٠ لعل المعلم صـديق الآن يتمتع ، فان تلك الشـبلة
من هـذه اللبوءة ٠

يفتح برعى القيصر محله ، ويحرك الأضلاف الحديدية ٠٠
ثم يبدأ فى وضع الدراجتين اللتين بقيتا بعد أن أكل الدهر منه
وشرب ــ فى مساندهما ٠ ويلتفت ليسمع صوتا يقول له :

ــ كيف حالك يا معلم برعى ؟

يرفع رأسه لينظر الى محدثه :

ــ من ؟

— ألا تعرفنى ؟

تساوره الاندهاشة ويقول كاذبا :

— لا .. لا أذكرك .

— أنا عزام سمير البيروتى .

يتجاهل ويتساءل :

— عزام .. من ؟

يستهزىء الرجل به ويقول :

— أنسيتنى بهذه الدرجة ؟

يستمر فى تجاهله ويتساءل :

— ذكرنى .. لقد ذهبت ذاكرتى .

— أنا زوج تفاحة بنت زوجتك .

يمسح يده فى بنطلونه ويقول :

— يا خبر !.. كيف لم أعرفك ؟.. العتب على النظر .

ويمد له يده ليصافحه . يمد له الرجل يدا باردة ويقول :

— أين تفاحة يا معلم ؟..

يحاول أن يتماسك ، ويدفن ارتباكه تحت ثباته الظاهرى . ويتساءل :

ـ لقد بلغنا أنك قتلت فى الحرب الدائرة الآن .

يقول بصوت جهورى :

ـ لقد قتل أخى .. وليس ..

يقاطعه قائلا :

ـ ولكن كان مع تفاحة شهادة وفاتك .

يهرس أسنانه ويقول :

ـ الملعونة .. أين هى يا معلم ؟

ـ لا أعرف ..

يضع يده على كتفه نازعا للعدوان .. غير أن برعى يزيحها بهدوء . وحيدر يتطلع اليهما متوثبا .

ـ أنا لا أعرف عنها شيئا .

ـ اذن .. سوف تعرف الشرطة كل شىء ..

* * *

١٨

يحوم بالقرب من الدكان ، وقـد بدل ثيابه ، لم يعـد يخرج بثياب العمـل ، حيث كانت الصبغات تملؤها ، والبقع تعشش فى أركانها • أصـبح يرتدى بنطلونا أنيقا ، وقميصـا نظيفا ، يغطيه سـويتر جلدى منتفخ •

تبدو يا سمسم كمن ارتكب جريمة ويتشمم أخبارها ، يعود الى موقع ارتكابها •• أتكون جريمتك أن لك دكانا صغيرا ؟•• ماذا أفعـل ؟ ذلك من أجل البك العائد من ليبيا •• يريد أن ينتسب الى عائلة كبيرة • ويفضل أن أكون متواريا الآن •

يصـادفه عواد الأسمر ويسأله :

ــ أين أنت يا رجل ؟•

يقول سمسم :

ــ مشـغول •

ــ ولم لا تفتح دكانك ؟

ــسـوف أقلبه بوتيكا •

يضحكان • ويستطرد سمسم قائلا :

ـ مشغول يا أخى •• اشتريت قطعة أرض باسم وداد ابنتى •• فى طريق الملك فيصـل •• غاليـة حقا لكنها كانت قادرة على دفـع ثمنها • وكان محمود قد اشـترى شـقة فى مدينة نصر •• ولكنى طلبت منـه أن يتعاون مع أخته على بناء الفيلا •• وعدنى خيرا •• وهأنذا أسـتعد لبناء الفيلا •

لم يذكر أن محمودا على وشـك الزواج ، وأنه بعـد يومين سـوف يذهب معـه الى دار العروس ، ويخطبها له •• لم يقل له ان محمودا اشـترى له بدلة كاملة • لم يكن يرتدى البدلات أبدا • كان يكتفى بالقميص والبنطلون والسويتر •• وها هو سـيحاول أن يبلغ مستوى وكيل وزارة •• سيحاول السهل أن يتحول الى جبل ؟•• أمعقول هـذا يا سمسم ؟•• أنا أتنبأ أن السـهل لن يكون جبـلا •• وأتنبأ أن الجبل لن يقبل أن يكون واديا •

ـ الى أين أنت ذاهب ؟

ـ انى فقط أتمشى •

ـ ولم لا تجالسنى فى المقهى •

ينظر اليـه ضاحكا ويقول :

ـ جلوس المقاهى ليس من مقامى الآن •

كأنك ضائع يا سمسم .. كأنك شجر اقتلع من جذوره وقالوا له عش حياتك .. كيف تعيش والجذور لا تمتص ماء ، ولا تستطيع أن تحصل على الغذاء !. غذائى عندك أيها الدكان الصغير أو الأشبه بالدكان .. تجويف له باب ، ولكن ما فيه يسعدنى .. يعطينى الحياة .. يمنحنى الحركة والنشاط .. ماذا يظن محمود ؟ أيظن أننى سأستمر حيا على فتات مائدته ومائدة أخته التى لم تفكر فى أجازة واحدة تعود بها من السعودية ؟ أيمكن أن يتوقف المستشفى العسكرى لو غادرته وداد لمدة شهر ؟ أيمكن أن تكون تزوجت واستقرت هناك دون أن أعرف ؟؟...

١٩

يضع يده على خده ، ويستند عليها ، وهى تعتمد على فخذه : كأنك شعرة يا ابن القيصر أفلتت من العجين .. أنا أمى يا سعادة النقيب .. لا أعرف القراءة والكتابة . حقا زوجت هذه الفتاة بالمدعو عزام سمير البيروتى . وسافرت معه .. ولم يتصلا بنا بعد سفرهما .. ظنناها ماتت .. لأن سنوات طويلة انصرمت دون حس منها أو خبر .. ثم جاءت وقد أخبرتنا أن زوجها قتل ، وأن معها شهادة وفاته ، أصبحت أرملة يا سعادة النقيب .. ولما تقدم اليها المعلم صديق لينكحها على سنة الله ورسوله ، وافقنا .. اننا نزوج

أرملة .. وقد اطلع المأذون على شهادة الوفاة . وقرر أنها أرملة ، فزوج تفاحة لصديق .. فما مسئوليتى ؟.. أنا لست أباها .. ما أنا الا زوج أمها .

ـ أنا تزوجت ذلك الرجل حقا .. وأخذنى الى بيروت .. وطفق يتاجر فى جسدى .. أنا منذ زمن بعيد لم أصبح حلاله .. انه ديوث كبير .. لكن ذلك ليس بيت القصيد .. لقد قتل فى الحرب هناك .. وطردنى أهله من البيت .. ألقوا بهذه الشهادة فى وجهى ، وقالوا لى : غورى يا مصرية .. لم تعودى تصلحين للحياة هنا ، وقد مات زوجك .. أخذت الورقة وعدت الى مصر .. وهنا تزوجت من جديد لأنى أرملة .. وها هى شهادة وفاة زوجى السابق أقدمها اليكم .

ـ يا سيدى النقيب .. هذه شهادة مزورة . ان من مات هو أخى عرام سمير البيروتى . تفتق ذهن المجرمة فوضعت نقطة فوق الراء لتصبح عزام سمير البيروتى . كان والدى مولعا بالأسماء التى تتشابه ولها رنين .. ولذلك سمانى أنا عزام . وكان قد سمى أخى من قبل عرام .. ولى أخت اسمها عالية وأخرى اسمها غالية . وقد سرقت هذه المأفونة شهادة وفاة أخى ، وجعلتها شهادة وفاتى .. وهربت الى مصر . أنا أتهمها يا سيدى النقيب بتعدد الأزواج .

ـ كيف اذن أقتنع الآن أن أهلك لم يطردوها وألقوا بالورقة فى وجهها ؟ وكيف أقتنع أنها زورت الورقة وشبهة التزوير منتفية عن الورقة ؟.. ان الفتاة لم تتكرك ولم تقل

مثلا انك عرام ولكنها تقر أنك عزام .. فلو كانت تمثل لاستمرت فى تمثيليتها .. على العموم القضية معقدة ، وسوف أعرضها على وكيل النيابة غدا .

ــ وما مصير زواجى يا سعادة النقيب ؟..

ــ لو ثبت أن تفاحة كانت تعرف أن زوجها على قيد الحياة وتزوجت بآخر ، فان زواجك حينئذ سيكون باطلا ، أما لو كانت لا تعرف ، فان من الممكن أن تسأل لجنة الفتوى بالأزهر عن زواجك يا معلم صديق . ولو ثبت أنها زورت الورقة وتزوجت بك ، فسوف تتهم بتعدد الأزواج .

ــ أنا أريدك يا سيدى النقيب أن تثبت أن هذا الرجل تزوجنى ، وأخذنى الى بيروت ، ليتاجر فى عرضى . انه قواد كبير ..

من أين لها هذه الفطنة والحيل تلك الملعونة ؟.. انها قادرة على الكذب والتلفيق ــ فى بعض الأحيان ، ولكن كذبها كأنه يتقطر منه عسل الصدق . وهى قادرة على رواية الحقيقة بدقة تقشعر منها الأبدان ، حتى تبدو كأنك أمام قطران من الكذب .. جاء عزام يتهمها بتعدد الأزواج ، فاتهمته بالتجارة فى الأعراض .. وعلى وكيل النيابة أن يحقق فى الموضوعين معا .

٢٠

ها هو الآن يستعد للسفر عائدا الى ليبيا ، عيناه تتهمانى

بأنني السبب فى تعاسته . وهل اخترت يا بنى مهنتى ؟..
أنا أفعل المستحيل من أجلك .. أنسيت هذا اللف والدوران
من أجل مستقبلك ؟ أنسيت بعد أن حصلت على الشهادة فى
ليبيا ، وأزف ميعاد تعيين دفعتك فى الحكومة المصرية ، تركت
عملى وذهبت الى وزارة القوى العاملة ، لأقابل المسئولين
هناك ــ دخلت على مدير مكتب الوزير عنوة ، وشرحت له
موقفك . قلت له انك تخرجت من جامعة بنى غازى وحصلت
على الحقوق ، وترغب فى التعيين فى الحكومة المصرية . قال
الرجل ان شهادة الثانوية العامة يجب أن تكون مصرية . وعليك
أن تقدمها مع شهادة الجامعة ببنى غازى . وسألنى أتطلب
جهة معينة ؟ قلت له انك تعمل فعلا فى وزارة الصحة ولكنك
فى أجازة بدون مرتب ، وتبغى أن تستمر فى هذه الوزارة فى
شئونها القانونية .. قال : يجب أن توافق وزارة الصحة وتطلبك
بالاسم . وذهبت وقابلت وكيل وزارتك .. ورحب الرجل بك
فى الشئون القانونية ، وطلبك بالاسم ، وأرسلت أوراقك
كاملة . تعبت فعلا يا محمود لكنك لا تقدر . أتظن أن مهنتى
العروسة لك ؟ أبدا يا بنى . انها الطبقات الاجتماعية لا تزال
تسود .. ماذا يفعل خريج الاصلاحية لدينا حينما تصبح له
صنعة تكسبه مالا وفيرا ؟ أتظنه يتزوج طبيبة ؟ أبدا ، انه
يتزوج فتاة فى مثل مرتبته أو أقل منها . لا يتطلع الى ما فوقه
أبدا .. واذا تطلع فسوف يصاب بخيبتك تماما .. لكنك
لا تفهم يا محمود .. لقد تركت لك البيت وأنت تسافر

لأنى أشعر باتهامك الذى لا أقبله .. وسوف أذهب لأفتح الدكان الصغير الذى تشعر بالعار منه .

غريب أن أفتح الدكان ولا أعمل . كأن يدى شلت .. وما المانع أن تتزوج من جارتنا مثلما فعلت أختك ثريا ؟ ها هى تعيش فى طريق الملك فيصل فى شقة صغيرة حقا لكن تكفيها هى وزوجها . وبدأت بطنها تتكور لترزقنى بحفيد .. أعقمت الحارة ؟.. لم تعد تستطيع أن تجد فيها فتاة جليلة تستحق حياتك معها ؟!

عواد الأسمر يربت على ظهر سمسم فى هدوء .. يرتعش سمسم وهو يفيق من همساته لنفسه وتأملاته :

ـ أين أنت يا رجل ؟

ـ فى الدنيا .

ـ وماذا فعلت فى الدار التى تبنيها ؟

ـ لا أكف أبدا عن العمل . أباشر العمال حتى لا يسرقونى . وأشترى الأسمنت والمسلح وأراقب العمل تماما .. لم يتبق الا شهور وأحال الى المعاش ، لذلك قررت أن أستفيد بأجازة المعاش من الآن .

٢١

يقول عوض بهدوء :

ـ أعتقد أنه بعد أن ماتت أمك لم يعد من اللائق أن تستمر فى هذا البدروم ؟

يتساءل سيد باستغراب :

ــ وماذا تعتزم أن تفعل ؟

يقول عوض ، وهو يتحسس لحيته الناعمة :

ــ آن الآوان أن يتزوج كل منا .. وننطلق لنبحث عن شقة .. ونحول هذا البدروم الى مخزن .

ــ وهل ابن المرجوشى سوف يقبل ؟

ــ وما المانع ؟.. سوف نزيد الايجار . خاصة أنه لن يجد أحدا يسكنه .

ــ أأنت نائم يا عوض ؟.. ان الناس الآن بسبب ندرة المساكن تعشعش فى القبور .. ألا ترى الأفلام السينمائية ؟..

ــ هذا رجس من عمل الشيطان .

ــ على كيفك .. لتكن سائرا فى تصوفك كما يحلو لك .. أما أنا فسوف أمضى فى حياتى كبقية الناس .

ــ أنا لا أفعل ما يغضب الله . أنا أصلى وأعوض ما فاتنى من صلاة ، وأصوم ، وأزكى ، وأتبع تعاليم دينى بالحرف . وليس عيبا أن أطلق لحيتى وأحف شاربى أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم .

ــ يا عوض .. يا أخى .. أنا لا أتدخل فى حياتك .. كنت فقط أريد أن أقول لك ان هناك أزمة فى المساكن .

ــ يا أخى .. يا سيد .. المساكن موجودة . لا داعى أبدا لأن تسكن فى الجيزة والقاهرة .. هناك مدن قريبة منها يمكن أن تجد لك مسكنا فيها مثل شبرامنت ، طموه .. منيل شيحة .. عزبة البكباشى .. أبو النمرس ..

ـ والمواصلات يا فتى ؟

ـ سوف تحل •• سوف أركب السيارة في الساعة السادسة والنصف •• أصل هنا الساعة السابعة والنصف تقريبا •• أو قبل ذلك •

ـ اذا ما اكتشفت مسكنا ، فخذ لى بجانبك آخر •

ـ اذن فأنت قد وافقت •

يمضى سيد الى عمله ، فهو يعمل الآن بالمقاولات • وفى نفس الوقت يشارك أخاه فى الدكان •• ولايشترى لوازم العمل الا من دكانهما •• بينما يفرش عوض سجادة الصلاة أمام دكانه ليصلى ركعتى الضحى ، وأمامه برعى القيصر يرقبه •• لم تركعها يوما يا برعى ، وهذا خطر عليك ، فأنت تتقدم فى السن ، وفى لحظة لا تتوقعها تنتقل من عالم الجسد الى عالم الروح • وماذا سيفعل قزم مثلى فى الدنيا ؟ انه لا يؤخر ولا يقدم •• ما أنا الا مثل الساعة ترى دون أن تدرى شيئا عن مستقبلها وحاضرها وماضيها • يا رجل أنت تكذب •• ان حيلك تدل على أنك عاقل •• عاقل •• عاقل •• ألم تستطع أن تزيح عزام سمير البيروتى من القاهرة كلها ؟ كان يريد أن يبقى فى مصر ليفتتح فيها مطعما •• فما كان منك الا أن اتصلت بنقيب المباحث الذى يسكن فى أعلى دور فى العمارة التى تسكنها ، طلبت مقابلته وشرحت له الوضع • وأخبرته أن عزام جاء الى القاهرة ليمارس التجارة فى الرقيق الأبيض مرة

أخرى تحت ستار انشاء مطعم بشارع الهرم .. تحرى الرجل فعلا وثبت لديه ماضى عزام المشين رغم أنه يتستر تحت طبقة أخرى من الماضى المجيد . يخفى تجارة السوء تحت هيلمان الجهاد ضد اسرائيل .. وما كان من النقيب مفتش المباحث الا أن أمره بمغادرة البلاد .

ولا تزال تفاحة تعيش مع المعلم صديق .. ولا يزال التحقيق مستمرا . نصحها وكيل النيابة أن تطلب الطلاق من زوجها السابق . اذ لم يثبت أن تفاحة كانت تعلم أن زوجها لم يمت وأن شهادة الوفاة زورت . ولم يثبت عزام أن تفاحة كانت تعرف أن أخيه هو الذى مات ، وأنها هربت من بيروت دون علم زوجها .

وهاهى تفاحة تذهب الى أحد المحامين ليطالب بتطليقها من زوجها الداعر . تتضرر من كونه تاجر فى عرضها فى بيروت ونما الى علمها أنه مات ودفع لها أهله بشهادة وفاته ، غير أنه ثبت أنه لايزال على قيد الحياة . وتخشى أن تعود اليه فيعاود الاتجار فى شرفها .. لذلك تطلب تطليقها منه طلقة بائنة .. وطلبت من المعلم صديق أن يطلقها هو الآخر لأن زواجه منها باطل . وحينما تحكم المحكمة بالعدل قد تعود اليه .. انصاع المعلم صديق ونفذ طلبها ، فطلباتها أوامر .. ورغم ذلك لم تفارق بيته .. أنت غير مسئول يا برعى . المسئول أبوها وقد اختفى ظله منذ زمن بعيد .. ولا يعرف له مكان . والمسئول أمها . أما أنت فما أنت الا زوج أمها .

واذا عاشت هـذه الداعرة مع طليقها فلا مسـئولية عليك .. ثم من يعرف ؟ من يحس بنـا ؟ ان الرعاع أمثالنـا اذا كانوا مقتصرين عن خلق الله فلا اشـاعات تلوث سـمعتهم . وماذا يمكن أن تفعل الاشاعات فيهم بعد أن بلغوا الحضيض بعينه ؟..

يفيق من تأملاته على صوت تفاحة تسـأل :

ــ أين أنت يا معلم برعى ؟

ــ فى الدكان يا تفاحة .. أين يمكن أن أكون ؟..

ــ أريد أن يشـهد مفتش المباحث أن عزام سمير البيروتى تاجـر أعراض .

ينظر اليها بعينيه الضيقتين ويتساءل :

ــ أجننت يا تفاحة ؟

ــ وما فى ذلك ؟.. شهادته ستثبت أن من الضرر أن أعود الى عزام . فتأمر المحكمة بتطليقى .

ــ أنا طلبت منه فقط أن يطرده من البلاد . ولا يمكن أن أطلب منـه أن يشهد بذلك أمام المحكمـة .. ألا تعرفين أن تحريات المباحث سرية .

ــ يا عم برعى .. هذه وسيلتى الوحيدة ..

ــ اذهبى اليه .. أنا لا يمكن أن أتدخل فى ذلك أبدا .

ــ أيرضيك أن أكون هكذا كالبيت الموقوف .. لا أستطيع أن أتزوج .. ولا أستطيع أن أطلق ؟!

ــ هذا وضع أنت الذى صنعتيه بنفسك .. فماذا أفعل لك ؟.. لم لم تستمرى مع المعلم صـديق ؟

ـ ثبت أمام النـاس أن زواجنـا باطـل فكيف أستمر يا عم برعى ؟..

يقول برعى :

ـ أنا أقول لك .. لا تذهبى الى مفتش المباحث ، انما اطلبى من المحامى أن يقابله .. ويشرح له الوضـع .. فهـو رجـل متعلم ويعرف كيف يتعامل مع رجـل شرطة مثل ذلك الرجل .. وقد يتمكنان معا من أن يجدا لك حلا لقضيتك .

تمضى تفاحة .. ويظهر محمود فى الشـارع وبصـحبته سمسم وابنه .. الاثنان يسيران وقـد التفت يد سمسم حول يد ابنه بشـدة .. ويقول سمسم :

ـ سلام عليكم يا أسطى برعى .. هاهو محمود قد عاد أخيرا من ليبيا .

ـ على طول يا محمود ؟..

ـ على طول يا أسطى برعى .

يخرج عنتر عنـد سـماع الأصـوات المختلفـة من دكان الكواء . ويفتح ذراعيه لمحمود مهنئا ويحتضنه وهو يقول :

ـ لقد وجدت لك عروسة .. سوف تعرف مقامك جيدا .

ولا يدرى سمسم كيف حانت منه التفاتة الى دكانه ..

فوجـد الأتربة متراكمـة على بابه كأنما تعلن قفـله الى الأبـد !..

الرياض فى الخميس ١٠/١١/١٩٨٨م

لقمة فى يد النســـاء	١٩٧٧
بذور	١٩٨١
وقائع غير مرئية تحت الشمس	١٩٨٥
خـــذ الحذر	١٩٨٦
غالبا ما يتفتح الزهر	١٩٨٨
السفر الى زمن ميت	١٩٨٩
بعد فوران الحمم	١٩٩٠

رقم الايداع بدار الكتب ٣٩٦٩/٩٠

الترقيم الدولى ١ ـ ٠٠٠ ـ ٢٤٦ ـ ٩٧٧

